Route Educational & Social Science Journal
Volume 6(5); May 2019

Artical History		
Received/ Geliş	Accepted/ Kabul	Available Online/yayınlanma
11.04. 2019	09.05.2019	15.05.2019

The view of the french historians of algeria in the ottoman era and the beginning of the occupation

نظرة المؤرخين الفرنسيين للجزائر في العهد العثماني وبداية الاحتلال

بلعالية ميلود. أستاذ محاضر. جامعة الشلف الجزائر

BELALIA Miloud. MCA. University of Chlef Algeria

الملخص

لقد كتب المؤرخون الفرنسيون أن تاريخ الجزائر في العهد العثماني مكتوب من مصادر أوروبية، وفي نظر بعضهم أن تاريخ الجزائر من مطلع القرن السادس عشر إلى بداية القرن التاسع عشر، يجب أن يدرس من خلال ما رواه الرحالة والقناصل الأوروبيون اعتمادا على وثائق أرشيفية، فالجزائر في كتاباتهم هي أرض فراغ انتقلت إلى غاز جديد، وصارت من ممتلكات الدولة العثمانية طيلة ثلاثة قرون بعد صراع عثماني إسباني في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

إلى جانب كتابات وصفية لطرق ومسالك ورحلات برية وبحرية ووصف حواضر أجتازها الكتاب ومدن زاروها وأخلاق وعادات للسكان، يجب إضافة بحوث في التاريخ العام وتراجم ودراسات حول السياسة الجزائرية في الفترة العثمانية. لقد انطلق اهتمام المؤرخين الفرنسين بالكتابة عن الجزائر من دوافع كثيرة منها: الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الأوروبية التي حملت معها إلى الجزائر أدوات الغزو الفكري، ودافع السيطرة والاحتلال ودافع الفضول العلمي ودافع الدين بعد صراع بين القوى الأوروبية والدولة العثمانية. ولقد ربط المؤرخون الفرنسيون الاستعمار الروماني للجزائر بالاستعمار الفرنسي بقصد تشويه تاريخ الجزائر، فهذا المؤرخ ستيفان غزيل صاحب أطروحة: "الجزائر جزء اقتطع تعسفا من إفريقيا الشمالية"، ويردد المؤرخ وليام مارسي صدى هذه الأطروحة مشيرا إلى الفتح العربي الإسلامي وإلى العهد التركي: "...في كلتا الحالتين، غزا المشرق هذا الجزء من المغرب".

الكلمات المفتاحية: إيالة الجزائر، لويس رين، ستيفان غزيل، الإدماج، وليام مارسي.

Abstract

Historians have written that the history of Algeria in the Ottoman era is written from European sources, and some consider that the history of Algeria from the beginning of the sixteenth century to the beginning of the nineteenth century must be studied through what the European travelers and consuls have written on the basis of archival documents. A land of vacuum was transferred to a new gas and became the property of the Ottoman Empire for three centuries after a Ottoman-Spanish conflict in the western basin of the Mediterranean.

In addition to descriptive writings of roads, routes, land and sea trips, descriptions of cities passed through the book, cities visited, ethics and customs of the population, general history research, translations and studies on Algerian politics should be added in the Ottoman period. The desire of the French historians to write about Algeria is motivated by many reasons: the desire to identify a people who fell into the grip of European civilization, which carried with it to Algeria the tools of intellectual conquest, the champion of domination and occupation, and the motive of scientific curiosity and religion after a conflict between the european powers and the Ottoman Empire.French historians have linked the roman colonization of Algeria with the french colonization in order to distort the history of Algeria. Historian Stephane Gzel wrote a treatise: "Algeria is an arbitrarily cut part of North Africa." The historian William Marçais echoed this thesis, referring to the arab-islamic conquest and the turkish era. in both cases, Mashreq invaded this part of Maghreb".

Keywords : Regency of Algiers, Louis Rinn, Stephane Gzel, integration, William Marçais.

المدخل:

يهدف موضوع الورقة البحثية الموسومة بـ: **نظرة المؤرخين الفرنسيين للجزائر في العهد العثماني وبداية الاحتلال**، إلى رصد ما كتبه المؤرخون الفرنسيون عن الجزائر انطلاقا من مصادر أوروبية فقط، إذ في نظر بعضهم أن تاريخ الجزائر الحديث يجب أن يدرس بصفة رئيسية بواسطة ما رواه قناصل ورحالة اوروبيون وبواسطة وثائق أرشيفية. ونطاق هذه الورقة العلمية لها علاقة بالمحور السادس بعنوان: التاريخ والآثار كمداخلة في المؤتمر الدولي الثاني للعلوم الإنسانية، ومن هذا النطاق، فإن مقاربات هذه الورقة النقاشية تتناول العناصر الثلاثة في هيكل البحث، وطرح نظرة المؤرخين الفرنسيين في سياق الأطروحة الفرنسية حول

كتابة تاريخ الجزائر على اعتبار كون هذه النظرة موقفا سياسيا استخدم فيه المؤرخون الفرنسيون الدراسات لتبرير احتلال الجزائر. أما منهج البحث في هذا الموضوع فقط اتبعنا المنهج الوصفي في جمع ماد ته التاريخية من مظانها والمنهج التحليلي في الدراسة النقدية للمعلومات التي وظفها المؤرخون الفرنسيون في تبرير اطروحات مدرسة التاريخ الاستعماري والرد عليها إذا كانت تجانب الحقيقة التاريخية. فما هي نظرة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الجزائر العثماني؟ وما هي دوافعهم في الكتابة عن الجزائر بعد الاحتلال؟ وما كيف ساهمت نماذج كتابة المؤرخين الفرنسيين في تشويه تاريخ الجزائر؟

1. نظرة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الجزائر في العهد العثماني:

إذا كان التركي قد أصبح هو العدو للغزاة الإسبان الذين احتلوا الثغور البحرية الجزائرية الممتدة من المرسى الكبير حتى جيجل في الفترة (1505-1509)، فإن دخول العثمانيين ساعد الجزائريين على مقاومة الغزو الإسباني، حين صارت الجزائر منذ سنة 1518 ولاية عثمانية تسمى دار السلطان لها إدارة مركزية في الجزائر العاصمة وإدارة إقليمية في بايليك وهران، قسنطينة والتطيري، وحدود مع تونس والمغرب وأسطول حربي في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط لمواجهة الاعتداءات المتكررة للقوى البحرية الأوروبية ضد الجزائر، فأصبح للجزائر مكانة بارزة في العلاقات العثمانية الأوروبية.

ولقد حيرت الفترة العثمانية القوى البحرية الأوروبية، فأثارت اهتماماتها، وخاصة عند إسبانيا، وكانت من بين الفترات التي أسالت كثيرا من الحبر في إسبانيا وفرنسا والمدن الإيطالية وفي غيرها من البلدان الأوروبية. فقد أتاحت الحروب والتجارة والتجسس والدبلوماسية وافتداء الأسرى وحب المغامرة للأوروبيين فرصة التعرف على الجزائر والتأليف في تاريخها وتدوين الوقائع التي عاصروها. ولذلك كانت الآداب والعلوم الإنسانية، وخاصة المصادر الفرنسية كثيرة وموضوعاتها متنوعة.

إلى جانب كتب تاريخية وجغرافية للجزائر، ورحلات برية وبحرية ووصف حواضر اجتازها الكتاب ومدن زاروها وأخلاق وعادات للسكان درسوها، (P, Claussolles. 1843. 46) ، إضافة إلى الدراسات حول السياسة الجزائرية في هذه الفترة أشارت إلى التنظيم الإداري، ونظام الحكم العثماني، والتعمير، والدين والطرق الصوفية، والقبائل وأهل الذمة في الجزائر والعلاقات مع القوى الأوروبية. ولكن هذا الترتيب للكتب وضع وفقا لموضوعاتها الرئيسية، وخاصة التي ألفت عن الجزائر لم تنحصر في أغلب الأحيان داخل نطاق الموضوع المحدد لها تحديدا دقيقا. (H, Grammont (de). 1879. 183)

من هذا التقديم للكتابات الأوروبية عن الجزائر، يمكن إبراز القيمة الإخبارية لهذه المؤلفات الأجنبية، فهذه العروض على الرغم من النقص والأحكام المسبقة الخطيرة التي تشتمل عليها، لا غنى لكتابة تاريخ الجزائر عنها، لأن المصادر العربية فيما يخص هذه الفترة نادرة غالبا. (R, Montran. 1962. 243) فالمصادر العثمانية التي كانت محط آمال الباحثين لا تتخطى القرن السابع عشر، والتي يرجى منها أن تساعد المؤرخ تقف عند القرن الثامن عشر فقط. كما أن جزءا من الوثائق العثمانية المحفوظة في اسطنبول وتونس والبندقية. ولقد نشرت وثائق عثمانية خاصة بإفريقيا الشمالية في كتاب عزيز سامح الترك بعنوان: الترك في افريقية الشمالية، وتشتمل في أساسها على سجلات محاسبة ترجع إلى ما بعد سنة 1650، ولا تلقي محتوياتها ضوء جديدا على وقائع وحياة الجزائر، لأن الأوجاق لم تهتم بتسجيل الأحداث التي شاركوا فيها (عزيز، سامح الترك. 1937.325).

أما المصادر العربية، فإنها لا تصلح كأساس لدراسة الفترة موضوع الورقة البحثية. فالنصوص نادرة غالبا (R, Montran. 1962. 248) والعلوم النقلية القريبة من التاريخ نزح مؤلفوها إلى تونس وفاس بدخول العثمانيين إلى الجزائر. وتدوين أحداث التاريخ لم يكن موجودا في الجزائر في هذه الفترة، لأنه فن يزدهر في حماية الدول، فقد سقطت الدولة الزيانية في مطلع القرن السادس عشر، بينما ازدهر في تونس وفاس، ما يزودنا أحيانا، بمعلومات عن وقائع المغرب الأوسط (L, Provençal. 1922. 24).

ولكن الدراسات التاريخية المتخصصة ينبغي أن تقرأ بحذر، لأنها كتبت في أغلب الأحيان لمجاملة الأمراء الحفصيين أو السعديين الذين كانوا معادين للعثمانيين في الجزائر. فالرحلات الغنية بتراجم الصلحاء بما تقدمه من أخبار عن أحوال الجزائر، رغم أنها كتبت بعد النصف الأول من القرن السادس عشر (Dominique, Busnot. 1714. 49) ، ويتقدم أدب التراجم الآثار الأدبية في المغرب الأوسط، ولكن هذه التراجم ركزت على حياة شيوخ الصوفية وعلماء العلوم النقلية في القرن السادس عشر، دون الاهتمام بحياة الفاعلين السياسيين في البلاد، كما أن الولاة العثمانيين في الجزائر لم يشجعوا على تدوين أعمالهم (A, Bel. 1938. 376) ، ولذلك فالتدوين التاريخي الذي كان من بين مصنفات المؤلفين المسلمين في شمال إفريقيا منذ مطلع القرن السابع عشر، فهو لا يخلو من قيمة إخبارية، ولكن لا يوجد بعد النظر الذي تميز به المؤرخون في العصر الوسيط، وخاصة عبد الرحمن بن خلدون، ويعزى ذلك إلى أن مؤرخي التاريخ الحديث يحملون طابع البيئة التي عاشوا فيها التي تميزت بالصراع الديني بين العثمانيين والأوروبيين المتعصبين للمسيحية (A, Bel. 1938. 376) .

وهكذا يعكس هؤلاء المؤرخون عقلية عصرهم، ويقدمون ما يؤيد هذا التحول الفكري (Shaw. 1948. 341)، ولقد احتلت الدراسات الدينية في مطلع العصر الحديث مكانة في مجتمع المغرب الأوسط فباستثناء العلوم المساعدة على دراسة العلوم النقلية مثل النحو واللغة العربية لفهم النصوص الدينية. وباستثناء البلاغة والمنطق واستخدامها في كتابة الخطب والتفسير وباستثناء مبادئ الحساب لقسمة المواريث وعلم الفلك لمعرفة مواقيت العبادة، فإنها لا تعتبر مثل الفلسفة وعلم الكلام في تشويش الأفكار (R, Ricard. 1945. 46).

وفي ظل هذا الفراغ في الكتابات التاريخية باللغة العربية في تاريخ الجزائر العثماني، جاءت الكتابات التاريخية باللغة الفرنسية لملء هذا الفراغ، ولقد حملت الدراسات التاريخية للمؤرخين الفرنسيين في الظاهر مواصفات البحث التاريخي الجيد مثل الضبط والاتقان والتقسيم الدقيق للفترات التاريخية التي جاءت في مؤلفات دي غرامون، ومارسي وماسون وغوتي والتي ستكون لها آثار على الكتابات التاريخية باللغة العربية.

ولقد أقام كثير من الباحثين الأجانب في مدينة الجزائر أو قاموا برحلات في الحواضر الجزائرية أو خدموا في قصور الدايات بمدينة الجزائر وفي قصور البايات في وهران وقسنطينة والتيطري (A, Devoulx. 1869. 157) ولذلك جاءت ملاحظاتهم مباشرة ومعلوماتهم التي ضمنوها مؤلفاتهم تعتبر ثمينة، والدليل على ذلك اعتماد الباحثين في بداية الاحتلال بعد سنة 1830 على ترجمة تقارير رسمية وتوظيف كثير من الوثائق الارشيفية (L, Rinn. 1903. 72).

ولكن هذه المواصفات الجيدة لا يمكن أن تغطي الجانب السلبي في نظرة المؤرخين الفرنسيين للجزائر في العهد العثماني، لأن هذا الجانب السلبي يشمل غالبية هذه المؤلفات، ويعزى ذلك إلى أن أهمية هذه المصادر الفرنسية بالنسبة لتاريخ الجزائر في العهد العثماني هي بعيدة عن إجماع الباحثين الموضوعيين (Emmanuel, d'Aranda. 1637. 43. & Berbrugger. 1867.68). فقد كتب الضابط لويس رين: "إن الوثائق الجيدة التي تخص العهد التركي قليلة، وإذا كان ما ملكه منها هو صادق ومثير للفضول ومفيد فلا يكاد يشتمل على شيء من تاريخ العرب والبربر الذين عاشوا خارج الأوليغارشية حكم المستغلين المسيطرين على البلاد"(Blavin. 1899. 361)

عندما نبحث في الوثائق الأرشيفية، وخاصة المكتوبة باللغة الفرنسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، نلاحظ أن الاهتمام فيها اقتصر على العهد العثماني، وخاصة القرصنة وعلى عمليات اللصوصية في عرض البحر وعلى استعباد النصارى وعلى إقامة الأسرى الأوروبيين في مدينة الجزائر، والتركيز على إبراز بؤسهم وشقائهم وعلى أوجاعهم، وخاصة على افتداء الأسرى وعلى نشاط جمعيات الافتداء وعلى التجارة

(G, Gornelin, la Motte. 1731. 351.) وعلى رجال الدين المبشرين بالمسيحية وعلى عدم ثبات أصلهم وعلى دور أباء جمعية الثالوث المقدس وآباء جمعية القديس لازار والكاردينال لافيجري" (Dan. 1637. 85.)

أما العنوان الذي اختاره الأب دان لكتابه تاريخ بلاد البربر وقراصنتها، ومملكة ومدن الجزائر وتونس وسلا وطرابلس، فله مغزى، حيث يبحث عن حكوماتهم وعن أخلاقهم وقساوتهم وعن لصوصيتهم وأسحارهم وعن كثير من خصائصهم الأخرى الملفتة للنظر" (H, Grammont (de). 1890. 69). ذلك هو مؤلف الأب دان المتخصص في علم اللاهوت ورئيس دير الثالوث المقدس، والذي أقام في مدينة الجزائر في الفترة (1634-1635)، وركز الجزء الكبير من كتابه على طريقة تسليح القرصنة، وعلى خصائص المرتدين وهي الصفة التي أطلقها على الأعلاج بعد اعتناقهم الإسلام في الجزائر، وعلى العقوبات التي يفرضها الأتراك والمتوحشون على النصارى الذين يستعبدونهم، ويقتصر ما بقي من تأليفه على الحديث عن جمعية الثالوث المقدس" (Dan. 1637. 92).

لقد تجاهل الأب دان في تأليفه هذا صفة الموضوعية في الكتابة التاريخية، ولذلك جاء التفسير فيه غالبا مغرضة متحاملة والحذف من النص مقصود والمعلومات تجانب الحقيقة التاريخية. فهؤلاء الباحثون الفرنسيون المنتمون إلى مختلف الجمعيات المسيحية ألفوا كتبا دعائية وكانوا يستهدفون بها الترغيب أتباعهم في العطف على الأسرى لجمع موارد مالية في شكل تبرعات للكنيسة. فالمبالغة والقسوة والرعب هي الأشياء التي أوردوها في مؤلفاتهم للتأثير على رعايا بلدانهم الأوروبية حتى تلين قلوبهم. ولقد كان نشر هذه المؤلفات يسمح بنشر لهذه المعلومات على نطاق واسع في أوروبا، وخاصة فرنسا بهدف تغذية الحقد على المسلمين، وليس لترضية الفضول العلمي المتعطش للمعرفة التاريخية، وليقع التأثر من العقوبات التي يفرضها الجزائريون على النصارى لشن حرب صليبية على بلاد المسلمين (P, Clausolles. 1843. 492).

أما القناصل الأوروبيون الذين كانوا يشغلون مناصبهم في مدينة الجزائر، فقد سجلوا ذكرياتهم ودونوا الأحداث التاريخية، ورووا أشياء لها صلة بالمغرب الأوسط أي الجزائر. فكان منهم شهودا معاصرين لفترة اعتمادهم في الجزائر في العهد العثماني، وكانوا بصفة عامة على خبرة بمشاكل عدة ومراسلاتهم وتقاريرهم كانت ذخيرة لا تنفد من المعلومات للباحثين في تاريخ الجزائر العثماني. ولكن كان تأييدهم على العموم للديات الجدد في إيالة الجزائر ضعيفا وفاترا، من جهة، ومن جهة ثانية، فقد انحصرت إقامة بعض القناصل على مدينة سكناهم وغالبا في مدينة الجزائر، وكانوا لا يسافرون خارج العاصمة، ولذلك لم يعيروا اهتماما بالحياة الاجتماعية في داخل البلاد. وفي الجزائر العاصمة بالذات كان المجتمع الإسلامي بعيدا عن

اهتمامهم، فكانوا يجهلون حياة الناس في قصبة مدينة الجزائر وفي ريف العاصمة وحواضر دار السلطان، ويعزى هذا التجاهل إلى أن القناصل الأوروبيين غالبا ما كانوا يشاطرون آراء رعاياهم في الاقتناع بالآراء المسبقة وفي نظرهم كان سكان شمال إفريقيا منبعا للمشاكل، مخادعين، كسالى جشعين وناكرين للجميل (A, Filias. 1875. 194).

لقد تميزت الكتابات التاريخية الفرنسية بعد سقوط الحكم العثماني في الجزائر سنة 1830 بنزعة جديدة ذات قيم متفاوتة، فإذا كان المؤرخون يعتمدون في الكتابة عن الفترة الرومانية في الجزائر على المصادر المتخصصة، فقد راجعوا عن تاريخ العصور القديمة نفس النصوص لمؤلفين إغريق ورومان، وإن استثمروا فيما يتعلق بالفترة الاستعمارية الفرنسية تقارير رسمية ووثائق أرشيفية صادرة عن وزارة الحربية في باريس، ولكنهم حينما اهتموا بدراسة الفترة الإسلامية في الجزائر، ادعوا أنهم واجهوا صعوبات في فهم النصوص العربية في التاريخ والجغرافيا، ولذلك حكموا عليها بأنها تكاد تكون غير دقيقة وتترك مجالا واسعا للافتراض، ولقد ظهرت لهم أسماء الأسر الجزائرية العربية منفرة والأحداث عبارة عن تحولات مستمر لتاريخ يتألف ويتفكك باستمرار" (H, Garot. 1910. 258). ويظل عدد المؤرخين الفرنسيين في بداية الاحتلال قليلا، وخاصة الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية دون صعوبات ويفهمون قواعدها وصيغ بلاغتها وصور تراكيبها، فإلى جانب مؤلفات جديرة بالدراسة، توجد كتب تستهدف التعميم الشعبي ولا صلة لها بالتاريخ العلمي، بل كانت الغاية من تأليفها كسب الإعجاب أو كانت كتبا لتاريخ موجز تحشر الأحداث التاريخية كلها في تاريخ الجزائر في أقل من مائتي صفحة (Vinchon, Baron (de). 1910. 354) أو كانت نوعا من الفهارس تسرد الأحداث دون تفسير (Ch, Farine. 1869. 246).

وهكذا يصبح تاريخ الجزائر في العهد العثماني عبارة عن نظرة موجزة ينتقل منها المؤرخ الفرنسي بسرعة إلى احتلال مدينة الجزائر سنة 1830 (F, Biguet. 1905. 340).

لقد ألف قاليبرت كتابه بعنوان البلاد الجزائرية القديمة في 639 صفحة، وصف فيه الجزائر وتاريخها منذ العصور القديمة حتى سنة 1830 من بداية الكتاب حتى صفحة 249، أما باقي الكتاب، فقد حصره بالتأريخ للاحتلال الفرنسي، كما أنه أخلط في تأليف كتابه بين النزعة الخيالية في سرد الأخبار الممزوجة بالأساطير وعدم تمييزها عن التاريخ العلمي (Dubois, Fontanelle. 1775. 157).

كما أن محتوى كتاب المؤرخ الفرنسي فور بيغيت يتضمن معلومات تجعل القارئ ينفر من مطالعته، فلا يجد أمامه سوى القسوة والانقلابات المتكررة والحروب التي لا تنتهي عبر تاريخ الجزائر وسيطرة القوي على الضعيف، ويجد في كتابه ذكرا للتاريخ والحضارة (Faure, Biguet. 1637. 415) ، أما الكاتب دوبوا

فونتانيل، فقد تعرض بإيجاز لعدة مظاهر من الحياة الجزائرية قبل سنة 1830، جاءت في محتوى الجزء الرابع من كتابه (Dubois, Fontanelle. 1775. 279).

2. دوافع الكتابة عن الجزائر عند المؤرخين الفرنسيين بداية الاحتلال:

لقد انطلق الفرنسيون في كتابتهم عن تاريخ الجزائر بداية الاحتلال من معطيات أهما: كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة، وكونهم شعبا متحضرا حكموا شعبا متخلفا، وكونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم، وهذه المعطيات هي التي حددت منهجهم الذي تطور مع الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين. ولعل تلك المعطيات هي التي ما زالت تتحكم في الكتابات التاريخية الفرنسية عن الجزائر. ومن دوافع اهتمام الفرنسيين بتاريخ الجزائر:

- الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الأوروبية. وكانت هذه الحضارة تحمل معها إلى الجزائر كل أدوات الغزو الفكري. فقد جاءت بالمطبعة والصحيفة، وبالمستشرقين الذين يدعون معرفة الإسلام وتاريخه، وبالمترجمين الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية الأوروبية أو من الذين جاؤوا من الشرق بعد أن ارتبطوا بالحضارة الأوروبية عقب حملة نابليون (Charles, Féraud. 1876. 54).
- دافع السيطرة والاحتلال، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بجمع الآثار المكتوبة وغير المكتوبة وتصنيفها وتقييمها واستخلاص النتائج منها. ومن أجل ذلك استعان الفرنسيون أيضا بالكتاب الجزائريين مثل ما كتبه العنتري وابن المبارك عن تاريخ قسنطينة بوحي من بواسوني. وما كتبه مُحَمَّد بن علي التلمساني عن علماء وهران وتلمسان بوحي من حاكم وهران الفرنسي. وما ترجمه ونشره ابن أبي شنب والحفناوي بتحريض من الحاكم العام شارل جونار.
- دافع الفضول العلمي، فقد احتلت الجزائر في وقت كان فيه العقل الأوروبي جامحا يتطفل على ميادين المعرفة ويجوب آفاق الحياة يكتشف أسرارها ويحاول السيطرة على المجهول والمخيف منها. بينما العقل الشرقي كان ما يزال راكدا. ومع سيادة العقل الأوروبي ظهرت فكرة التمايز والتفاضل بين الشعوب الأوروبية على الشعوب غير الأوروبية، فالأوروبيون ينادون بضرورة "تمدين" هذه الأخيرة بواسطة الأولى، وهم يطالبون بذلك لا على أنه تمنيات، ولكن على أنه لا بد من القيام بها والعمل من أجلها. ونرى أن كتاب التاريخ الجزائري من الفرنسيين كانوا من دعاة هذا المذهب

فقد كتب وليام مارسي نقلا عن ألفريد بيل الذي قال: "إن حكومة الأتراك في الجزائر كانت حكومة قراصنة، جعلت القرصنة البحرية نظاما لها. وكان أعضاؤها أتراكا أو مرتدين مسيحيين. وكان إسلامهم خفيفا".(وليام، مارسي. 1931. 194).

- دافع الدين، فقد احتلت الجزائر بعد صراع شديد بينها وبين أوروبا المسيحية دام ثلاثة قرون. والأوروبيون يطلقون على العهد الثماني في الجزائر عهد القرصنة، وهو في الواقع كان الفصل الثاني من عهد الحروب الصليبية. ولذلك اهتموا بتاريخ الجزائر أولا لمعرفة أسرار ذلك العهد، وثانيا لتحطيم المعنويات التي قد تحدث تغييرا جذريا بعد نجاح الاحتلال. وسنرى أنهم اهتموا بالدراسات الإسلامية والطرق الصوفية ورجال الدين أصحاب النفوذ الروحي، تمشيا مع هذا الاتجاه. كما شاركت الكنيسة بواسطة المبشرين ووسائلها المادية والمعنوية في تبني هذا الاتجاه. فمنذ السنوات الأولى للاحتلال كانت صحيفة المرشد الجزائري تتحدث عن تأثير الكنيسة على الجزائريين، وفي سنة 1841 كون دي بوش أسقف كنيسة الجزائر جمعية باسم جمعية سان أوغستين. (وليام، مارسي. 1931. 165).

3. نماذج من تشويه المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الجزائر:

لقد اتجهت نظرة المؤرخين الفرنسيين في بداية الاحتلال إلى تشويه الحقيقة المتصلة بتاريخ الجزائر، فلقد استندت الكتابات الفرنسية التي تناولت تاريخ الجزائر بعد سنة 1830، إلى ثلاثة عوامل رئيسية هي:

- **معظم الكتابات التاريخية عن الجزائر صدرت بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830:**

لقد صدرت كثير من الكتابات التاريخية الفرنسية بغرض خدمة المشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، فهذا المؤرخ ستيفان غزيل كتب في مقدمة كتابه بعنوان تاريخ الجزائر ومؤرخوها: "يسطر التاريخ لنا واجباتنا أيضا، وهي تتمثل في إرادتنا المصممة على أن نكون أسيادا في كل مكان وإلى الأبد، وفي ضرورة إقامة إعمار يستند إلى إسكان أوروبي قوي في الريف، كما يتمثل في ضرورة تقريب السكان منا، رغبة وأملا في تحقيق انصهار على مدى قريب وبعيد، إن هذا التاريخ إذن لا يعتبر في إفريقيا هو أقل العلوم جدوى" (ستيفان، غزيل، وآخرون. 1931. 549). فالمؤرخ ستيفان غزيل الذي يعتبر من مؤسسي مدرسة التاريخ الاستعماري الفرنسي في الجزائر، يفصح في مقدمة كتابه عن إخضاع التاريخ لمتطلبات الاستعمار الفرنسي

في الجزائر، ويتأكد وجود هذا التوجه المنهجي عند ستيفان غزيل من خلال تحليل التعبير الأخير من الفقرة المقتبسة من كتابه، فهو قد أحجم عن مناقشة الرأي القائل بأن "التاريخ هو أقل العلوم جدوى"، من حيث هو واقتصر على مناقشته فيما يتعلق بتطبيق هذا الرأي على تاريخ المغرب العربي، إنه واضح في تحميل التاريخ مسؤولية محددة ذات علاقة مباشرة بخدمة الاستعمار، والمنطق الذي يتحكم في هذا التوجه، هو منطق تبرير الاستعمار، لأن كشف الستار عن حقيقة تاريخ الجزائر والمغرب العربي، يعني نسف إحدى الأسس المعنوية الرئيسية التي كان يستند إليها الاستعمار الفرنسي.

لقد كان الاستعمار الفرنسي منذ سنة 1830، في حاجة إلى القول بعدم قابلية الجزائر لأن تشكل شعبا أو أمة، مثلما كان في حاجة إلى إنكار أي وجود سابق للكيان الدولي للجزائر. ولكنه كان فقط في حاجة لذلك كي يقر هذه الفكرة، عند المستوطنين الأوروبيين في الجزائر حتى يكونوا أشد اطمئنانا إلى وجودهم في الجزائر، وأكثر ثقة في مستقبلهم في هذه المستعمرة الاستيطانية، وكان في حاجة إلى ذلك أيضا كي يخلق الشك عند الجزائريين. فإنكار أي وجود للكيان الدولي للجزائر يستهدف إلى تحقيق هذا الغرض المزدوج: ضمان تكوين فكري وإيديولوجي معين لدى المستوطنين الأوروبيين في الجزائر، وزعزعة المعلومات التاريخية عند الجزائريين وتشكيكهم في تاريخهم.

لقد اكتسبت عملية تشكيك الجزائريين في تاريخهم طابعا خطيرا، فزيادة عن تحريف معلومات الكتب المدرسية التي تتصل بتاريخ الجزائر بصفة خاصة، وتاريخ العرب والمسلمين بصفة عامة، كان المعلمون الفرنسيون يروجون خرافات وهمية، تستهدف دفع الطفل الجزائري إلى كره تاريخ بلاده وتهيئته نفسيا لأن يتقبل الاندماج في المشروع الاستعماري الفرنسي، ويقبل به قضاء وقدرا لا خلاص منه. ولقد سمع الكثير من الجزائريين في المدارس الفرنسية في الجزائر تلك الصورة التاريخية النمطية التي تقول إن سكان مدينة الجزائر باعوا مدينتهم سنة 1830 مقابل قصعة زلابية أعطاها لهم الفرنسيون. ولقد كان الكتاب المدرسي الذي يحتوي على هذه الخرافة، مرفقا برسوم توضيحية تبين عددا من الجزائريين تحلقوا حول قصعة زلابية.

وهكذا، فإن نماذج كثيرة من هذه الخرافات، تصبح مع طول الزمن حقيقة مسلما بها في أوساط المستوطنين الأوروبيين، وخاصة إذا ما عرف المستوى الثقافي السطحي الذي كان يطبع غالبية فئات الكولون.

- **دور الحكم العسكري في وضع المادة التاريخية لتبرير الاستعمار الفرنسي في الجزائر:**

لقد كان ضباط الجيش الفرنسي ومتصرفو الإدارة الفرنسية رواد وضع المادة التاريخية لكتابة تاريخ الجزائر في الأدبيات الفرنسية، وفي ذلك ما لا يخفى من تحيز يتنافى مع الموضوعية. فالعسكري أو الإداري في النظام الاستعماري الفرنسي في الجزائر يعتبر كتاباته امتدادا لعمله في الميدان، وعمله الأساسي هو الحرب ضد الجزائر وضد الأمة الجزائرية. يضاف إلى ذلك أن الفرنسيين الذين خدموا في الإدارة العسكرية للجزائر أو الإدارة المدنية، نظروا إلى تاريخ الجزائر من وجهة النظر الفرنسية، فكانت كتاباتهم في الحقيقة تأريخا للاستعمار الفرنسي في الجزائر ولم تكن تاريخا للجزائر. ورغم أن بعض المؤرخين الفرنسيين، قد تناولوا بالبحث تاريخ الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، ولكن هذا التناول كان لا يخلو من الملاحظات التالية:

- محاولة تشويه الماضي التاريخي للجزائر لإيجاد مبرر للاستعمار الفرنسي في الجزائر.
- التركيز على ما قبل التاريخ والتاريخ الروماني، في الجزائر، وإهمال تاريخها الإسلامي.
- تجاهل المصادر العربية لتاريخ الجزائر. (يحي، بوعزيز. 1983. 72).

وهكذا، فإن النتيجة العملية لهذه الملاحظات الثلاثة هي وجود تعريف يقلل من أهمية تاريخ الجزائر عبر العصور التي سبقت الاستعمار الفرنسي للجزائر سنة 1830.

- **اعتماد المؤرخين الفرنسين على مناهج أوروبية في كتابة تاريخ الجزائر:**

لقد اعتمد المؤرخون الفرنسيون في دراسة قضايا تاريخ الجزائر مناهج البحث والتقييم وهي مناهج أوروبية وضعت لكتابة التاريخ الأوروبي، وهذا يجانب الحقيقة التاريخية لأن مراحل التاريخ الأوروبي تختلف جذريا عن مراحل تاريخ الجزائر. وعلى خطوات هذه المناهج الحديثة في ظاهرها، تناولت الكتابات الفرنسية تاريخ الجزائر مطبوعة بهذا الطابع الذي يحكم عليها: فالقواعد التي يقع الاحتكام إليها في الدراسات التاريخية عن الجزائر هي قواعد استنبطت من وقائع التاريخ الأوروبي، تجعل من يتناول تاريخ الجزائر من وجهة نظر فرنسية يعمد إلى الحكم على تاريخ الجزائر بالنسبة لتاريخ فرنسا، ولا شك أن تحكيم مثل هذه النسبية المفرطة ومثل هذه المقاربة المقارنة غير الواردة لا يمكن إلا أن يعطي نتائج مغلوطة من الناحية العلمية والموضوعية. (مولود قاسم، نايت بلقاسم. 1988، (101).19)

لقد استغل مؤرخون فرنسيون وجود الاستعمار الروماني في الماضي التاريخي للجزائر، فحاولوا إيجاد رابطة بينه وبين الاستعمار الفرنسي في تاريخ الجزائر الحديث، وأن يتجاوزا المدة الزمنية على مدى أربعة

عشر قرنا وصولا إلى نتيجة، وهي أن الوضع الطبيعي للجزائر هو وجودها في نطاق السيطرة الأوروبية، أي تأكيد المؤرخين الفرنسيين على حتمية تبعية الجزائر لفرنسا الاستعمارية. وتشير المصادر المتوفرة عن تاريخ الجزائر الثقافي قبل سنة 1830 أن الحياة الثقافية قد ازدهرت في هذه البلاد، وإن كانت فقيرة من حيث المؤلفات العلمية، إلا أنها مع ذلك تظل ثقافة وطنية أصيلة، ولم ينقصها سوى التفتح والاستيعاب، ويرجع هذا النقص إلى تأثر الجزائر بحالة الجمود والتقليد التي عرفها العالم الإسلامي، والتأخر عن مسايرة النهضة الحديثة والتكيف معها، على أن رصيد الثقافة الوطنية يتجلى في أنها كانت تستمد قوتها من التراث المادي والثقافي وتستخدم اللغة العربية للتعبير عن الهوية الوطنية (يحي، بوعزيز. 1983. 84)

لقد كان سقوط الدولة الجزائرية الحديثة في 5 جويلية 1830 بداية للسياسة الاستعمارية الفرنسية في القضاء على التراث الثقافي الجزائري، فلم تكتف سلطات الاحتلال الفرنسي بتجريد الإنسان الجزائري من أرضه وطمس شخصيته العربية الإسلامية، بل استهدفت تخريب عقله، وكان التعليم العربي الهدف الرئيسي في هذه السياسة عن طريق إغلاق المساجد والمدارس القرآنية التي كانت تعلم اللغة العربية، وهدم الزوايا التي كانت منطلقا للمقاومة الشعبية ومراكز للتربية والتعليم (مولود قاسم، نايت بلقاسم. 1988، 26.(101))، وبعد تدجين بعض الزوايا التي سلمت من التخريب جعلتها تدين بالولاء لفرنسا، وحصرت نشاطها في تحفيظ القرآن الكريم، وهذا ما اعترف به أحد المستشرقين الفرنسيين سنة 1908 بقوله: "إن المساجد والزوايا مقتصرة على تعليم القرآن الذي يحفظه التلاميذ عن ظهر قلب، أما المدارس التي يستطيع التلميذ أن يتعلم فيها موادا أخرى، فعددها محصور جدا، ويبدو أن هذا العدد يتناقص باستمرار" (Georges, Hardy. 1931. 25) وهذا الاعتراف يدل على خطر السياسة الفرنسية في تجفيف المنابع التي يتغذى منها التعليم العربي في الجزائر، وحملت هذه السياسة كذلك أبعادا خطيرة منها تشويه الصورة الراسخة عن ماضي الدولة الجزائرية قبل الاحتلال، وإخماد روح الاعتزاز لدى الإنسان الجزائري بقيمته ومبادئه.

لقد تولت المدارس الفرنسية تلقين الأطفال الجزائريين عادات دخيلة عليهم في التفكير والسلوك، وقد اعترف جورج هاردي وهو أحد المنظرين لهذا النوع من التعليم في المستعمرات الفرنسية في إفريقيا قائلا: "إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا وجعلهم أكثر ولاء وإخلاصا في خدمتهم لمشاريعنا، هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة، وأن نفتح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار، وبذلك يتأثرون

بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا فالمقصود هو أن نفتح لهم المدارس لكي تتكيف فيها عقولهم حسبما نريد" .(Georges, Hardy.1931. 25)

يبدو من تصريح هذا المنظر الاستعماري أن سلطات بلاده استهدفت فرنسة المجتمع الجزائري عن طريق التعليم بحكم عدائها الشديد لتراث الأمة، ولكن الحقيقة التاريخية تؤكد أن فرنسا كانت حريصة على حرمان أبناء الجزائر من الحق الطبيعي في التعليم تحت ضغط المستوطنين الذين كانوا يتحكمون في ميزانية الجزائر، وخاصة ما يتعلق بالتعليم بموجب الاستقلال المالي والإداري الذي منحته لهم فرنسا في الجزائر منذ مطلع القرن العشرين. (رابح، تركي.1975. 93)

وكان هذا الحرص بحجة أن تحسين المستوى التعليمي لدى الجزائريين حتى ولو حصل عن طريق اللغة الفرنسية، قد يؤدي إلى المطالبة بالتحرر السياسي، لذلك انحصر التعليم في الأقلية الأوروبية، بينما فرضت قيودا على تعليم الجزائريين، ويقول هاردي في هذا الصدد: "إن التعليم الفرنسي الخاص بالجزائريين يضمن مبادئ أساسية كالحرص على مراقبة التعليم من أن يتحول إلى أداة يستغلها المشاغبون لإحداث الاضطرابات في المجتمع".(Georges, Hardy.1931. 40)

كما أن السلطات الفرنسية أدخلت التعليم التأهيلي في الجزائر، وكان الهدف الأساسي من هذا التعليم هو تكوين نخبة جزائرية تدين بالولاء المطلق لفرنسا عن طريق فصل هذه النخبة عن واقع الشعب الجزائري، ودفعها إلى إنكار وجود مقومات الأمة الجزائرية والدعاية للأطروحة القائلة بأن الثقافة تنحصر في الفرنسية، وأن تاريخ الجزائر بدأ من سنة 1830(مولود قاسم، نايت بلقاسم. 1988، (101).21).

يتجلى التضليل الفرنسي في طريقة تدريس التاريخ في المدارس الفرنسية في الجزائر، فكلمة العرب لم ترد في الكتب المقررة في المرحلة الابتدائية سوى مرة واحدة، ولم يبق من التاريخ العربي المجيد في هذه الكتب سوى تعبير: "وأن العرب انهزموا في بواتيي (Poitiers) على يد شارل مارتل (مولود قاسم، نايت بلقاسم. 1988، (101).33). ولكن هذه الكتب ركزت على غرس مقولة "أسلافنا هم الغاليون (nos ancêtres les gaulois). (مولود قاسم، نايت بلقاسم. 1988، (101).33). ولقد كان توسيع لاحتفال الفرنسي في بدايته نقطة تحول في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، وتطور موقفها تجاه المحافظة على التعليم العربي في المدارس الحرة رغم الاضطهاد الاستعماري الفرنسي (رابح، تركي. 1988 .97).

ومن النماذج العملية في نظرة المؤرخين الفرنسيين في تشويه حقائق تاريخ الجزائر، يمكن تقديم ما كتبه على سبيل المثال لا الحصر المؤرخ ستيفان غزيل الذي لم يتردد في التأكيد على أن "الجزائر هي جزء اقتطع من إفريقيا الشمالية" (ستيفان، غزال. 1931. 2). ولم يتأخر المؤرخ وليام مارسي في ترديد صدى هذه فكرة ستيفان غزيل، عندما كتب مشيرا إلى الفتح الإسلامي وإلى العهد التركي في الجزائر: "...في كلتا الحالتين، غزا المشرق هذا الجزء من المغرب" (وليام، مارسي. 1931. 139).

وهكذا تحكمت هذه العوامل الثلاثة في توجيه كتابات المؤرخين الفرنسيين توجيها مغلوطا في نظرتهم إلى تاريخ الجزائر، وجعلتها تساهم عن قصد في تشويه تاريخ الجزائر عبر العصور، وخاصة بعد سقوط مدينة الجزائر سنة 1830.

الاستنتاجات والتوصيات:

تتلخص استنتاجات البحث في نظرة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الجزائر في النقاط التالية:

1. نقد المصادر والوقوف منها موقف الشك والتحفظ وهذه النقطة وإن كانت ايجابية من منظور البحث الحديث، إلا أنهم طبقوها خصوصا على المصادر العربية فأصبحت وكأنها ظاهرة غير علمية في هدفها.
2. إهمالهم للشعب الجزائري في تناولهم لتاريخ الجزائر، لقد كتبوا عن الجزائر كمنطقة جغرافية من العالم تداولت عليها الدول والشعوب من الفينيقيين حتى الفرنسيين وليس هناك في نظرهم شعب أو أمة أو كيان متماسك، وإنما قبائل متنافرة تخوض حروبا مستمرة، ولا تخضعها إلا القوة كالرومان والأتراك والفرنسيين. هذه هي نظرة الفرنسيين في كتابتهم تاريخ الجزائر وهم لم يطبقوا هذه النظرية على عهدهم الذي يبدأ من سنة 1830 ولكن على جميع العهود الجزائر وتبريرا لوجودهم.
3. مجاراة المؤرخين، عسكريين واختصاصيين للإدارة الاستعمارية التي كانت مسؤولة عن الجزائر وخضوعهم لضغط المعمرين وهذه التبعية للسلطة قد جعلت أعمالهم تفقد روح البحث المجرد.
4. اهتم الفرنسيون بالعهد الاستعماري، ويأتي في المرتبة الثانية من اهتمامهم تاريخ الرومان في الجزائر وتاريخ المسيحية فيها، وأخيرا تاريخ البيزنطيين فيها، أما تاريخ العرب المسلمين، فقد ظل عندهم

عهدا غامضا حسب تعبير غوتي. وكذلك فعلوا مع العهد العثماني في الجزائر وهو العهد الذي قويت الجزائر وتوحدت فيه جغرافيا وسياسيا.

ومهما يكن من أمر نظرة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الجزائر في العهد العثماني أو بداية الاحتلال، فإننا نقدم بعض التوصيات لعلها تساهم في تأصيل الكتابة التاريخية وغرس مفهوم الوعي بالتاريخ، ومنها:

- يجب أن كتابة تاريخ الجزائر بوجهة نظر عربية موضوعية اعتمادا على الأرشيف الأجنبي.
- تشجيع الباحثين، وخاصة طلبة الدكتوراه على توظيف المصادر العثمانية والعربية في إنجاز أطاريح حول تاريخ الجزائر الحديث، وخاصة العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي.
- تجسيد اتفاقيات التعاون العلمي في مجال البحوث والدراسات التاريخية بين الجامعات العربية والجامعات التركية.
- طبع الأعمال الكاملة للمؤتمرات الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية في تركيا والعالم العربي، وخاصة المداخلات ذات الصلة بالتاريخ العربي الحديث.
- المتابعة الميدانية للباحثين المتخصصين في التاريخ الحديث لتركيا والعالم العربي لمخرجات المؤتمرات الدولية في الجامعات الأجنبية من أجل الاستفادة من التجارب الدولية في كتابة التاريخ الوطني والقومي.

قائمة المراجع:

أولا باللغة العربية:

أ- الكتب:

التر، عزيز سامح.(1937). **الترك في إفريقية الشمالية**. اسطنبول.

بوعزيز، يحي. (1983). **التسلط الاستعماري**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

تركي، رابح. (1975). **التعليم القومي والشخصية الوطنية**. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

ستيفان، غزيل، وآخرون. (1931). **تاريخ الجزائر**. باريس.

مارسي، وليام. (1931). **التاريخ ومؤرخو الجزائر**. باريس.

ب– الدوريات:

ماسي، هنري. (1933). **الدراسات العربية في الجزائر (1830–1930)**. المجلة الإفريقية. (**356–357**)، 145–156.

نايت بلقاسم، مولود قاسم. (1988). **العربية والتعليم العالي وأساليب النهوض بها في الجزائر**. الأصالة. (101)، 147–165.

ثانيا: باللغة الأجنبية:

Ouvrages :

Aranda (d'), Emmanuel. (1657). **Relation de la captivité.** Paris.

Bel, A. (1938). **La religion musulmane en Berberie.** Paris.

Biguet, Faure. (1905). **Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane**, Paris.

Blavin. (1899). **La condition de la vie des français dans la Régence d'Alger.** Alger.

Busnot, (le père Dominique). (1717). **La tradition de l'Eglise dans le soulagement et le rachat des esclaves.** Rouen.

Clausolles, P. (1843). **L'Algérie pittoresque ou histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours.** Paris.

Dan. (1637). **Histoire de Barbarie et de ses corsaires, le royaume et les villes d'Alger, de Tunis et de Salé de Tripoli.** Paris.

Farine, CH. (1869). **Deux pirates au XVIe siècle, histoire de Barberousse**, Paris.

Féraud, Charles. (1876). **Les interprètes de l'armée d'Afrique (archives du corps).** Alger : Jourdan.

Filias, Ach. (1875). **L'Algérie ancienne et nouvelle.** Paris.

Fontanelle, Dubois. (1775). **Anecdotes africaines depuis l'origine ou la découverte des différents royaumes qui composent l'Afrique jusqu'à nos jours.** 8 t en 1 V, Paris.

Garot, H. (1910). **Histoire générale de l'Algérie.** Alger.

Godefron, Gornelin, la Motte. (1731). **Etats des royaumes de Barbarie, Tripoli, Tunis et Alger.** Rouen.

Grammont, H (de). (1890. **Correspondance des consuls d'Alger (1600-1742).** Paris.

Hardy, Georges. **Une conquête morale : L'enseignement en AOF.** Paris : Albin Colin.

Lacour, A. (1835). **La marine de la Régence d'Alger avant la conquête.** Alger.

Levy, Provençal. **Les historiens des Chorfas.** Paris.

Montran, R. (1962). **Les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie.** Paris : Annales de l'Afrique de Nord.

Plantet, E. (1894). **Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France (1577-1830).** Paris.

Rinn, L. (1903). **Bulletin de la société de géographie d'Alger.** Paris.

Shaw. (1948). **Voyage dans la régence d'Alger**. Paris.

Vinchon, (Baron de). (1910). **Histoire générale de l'Algérie et des autres Etats barbaresques jusqu'à nos jours.** Alger.

Périodiques :

Berbrugger. (1867). **Voies et moyens du rachat des captifs chrétiens dans les Etats Barbaresques. Revue africaine**.

Devoulx, A. (1869). **Un exploit des Algériens en 1802.** Revue africaine.

Grammont, H (de). (1879). **Relations entre la France et la régence d'Alger au XVIIe siècle.** Revue africaine.

Ricard, R. (1945). **Textes espagnols sur la Berberie (XVe-XVIe et XVIIe siècle).** Revue africaine.